أسانسير يأخذك للسماء

1

كالعادة يأخذ مني زياد المفاتيح ليسبقني للأسانسير. أتركها له وأنا أحاول أن أسرع خلف خطواته السريعة. يفتح باب الأسانسير القديم وينتظرني على بابه الحديدي الثقيل، أسرع وأسند الباب؛ ليدخل وأدخل خلفه.

يمرر المفتاح البلاستيكي الأزرق أمام اللوحة ويتوقف فجأة دون أن يضغط على رقم الطابق. سألته وأنا أنظر له «فيه إيه؟». لا يرد. ينظر لي وللوحة تسجيل الأرقام بحيرة. أتطلع فيها؛ لأجد أن رقم 6 شبه ممسوح. قمتُ بالضغط على الزر الذي أعرف مكانه. وقلتُ له «تلاقي حد مسحه. معلش». فيهمهم بما لا أفهمه. لم أهتم. كنتُ متعبًا، ولا أريد سوى الصعود للبيت.

2

– بابا..
– نعم
– هو لو الزرار رقم ستة مكنش موجود، كنا هانعمل إيه؟
– كنا هانطلع الدور السابع وننزل على رجلنا دور.

ينظر لي بعدم اقتناع. ويقوم بالضغط على الزر الذي عرف مكانه مني بالأمس. ببطء يُغلق الباب، ويصعد الأسانسير بحركة آلية مهتزَّة لأعلى. عيناه معلقتان على لوحة إظهار أرقام الطوابق يمين الباب. يعدُّ معها الأرقام بصوتٍ لاهثٍ صغير، يتوقف عند الرقم ستة فيفتح الباب ببطء ليخرج مترددًا.

3

كانت معظم الأرقام ممسوحة تلك المرة. أنظر أنا وزياد إليها في حيرة. لكنِّي أحاول طمأنته، بأنَّ أحد الناس المزعجة قد فعل ذلك.

أتركه يضغط على الزر دون أن أتابعه، يرتج الأسانسير المتهالك قليلًا بعد إغلاق الباب ويصعد ببطء شديد. التصق بي زياد فربتُّ على كتفيه وأنا أضمُّه نحوي. كانت اللوحة ترتعش، وتهتز إضاءتها وتظهر أرقام عشوائية مختلفة. صوت تنفسه ولهاثه الصغير يصل لأذني فأضمُّه بقوَّةٍ أكبر. ارتعشت الإضاءة كلها قليلًا؛ والأسانسير يتوقف ببطء شديد جدًّا قبل أن يُفتح الباب ليواجهنا طابق غريب غير طابقنا.

شـعرتُ به ينتفض جانبي ويلتصق بي وصـوت لهاثه يعلو أكثر. أكاد أشـعر بدقات قلبه الصغير تعلو بجنون. أنفاسي أنا الآخر تتلاحق محاولًا السيطرة على توتري. أمسكتُ بكتفيه بقوَّةٍ وأنا أخرج بنصف رأسي لأنظر حولي.

كان طابقًـا غريبًا لم نره من قبل، طابقًـا ليس موجودًا في العمارة كلها؛ واسعًا وبه نافذة كبيرة مغلقة بالأمام، تحجب ضوء الشمس القوي بالخارج، ولا يوجد به أيُّ أبواب أخرى. طابق بلا شقق.

أردتُ الخروج لكنَّه تشبَّث بي متسمِّرًا مكانه بالداخل. حاولتُ الكلام، وطمأنته؛ لكني لم أجد فمي. كان التوتر يجعلني أرتعش، وعصارة معدتي تتصاعد وتهدر بلا توقف. واصلتُ تربيتي المجنون عليه وأنا أقف مكاني في المنتصف بين الداخل والخارج، أواصل تأمل المكان. الصمت الشديد الذي يغلف كلَّ شيءٍ. انقطعتْ أصوات العمارة الصاخبة، وساد السكون تمامًا.

فكَّرتُ في الخروج وتركه بالأسانسير، لكنِّي تراجعتُ فورًا. لن أتركه وحده هناك. ولن أخرجه معي في ذلك المكان الغريب، لا أدري ماذا هناك، ولن أتركه يواجه هذا معي.

ألقيتُ نظرة أخيرة على المكان حولي قبل أن أستسلم لجذب زياد المتواصل وأرجع لداخل الأسـانسـير، وأحمله ضامًّا إياه في صدري. تطلعنا للأزرار معًا. قبل أن نقوم بعدها من أسـفل ونتوقف عند الزر السادس، وأضغط عليه بيد مرتعشة.

4

لم نتكلم في الموضوع سويًّا، أو نعلق عليه، أو نحكيه لأحد. ظلَّ واجمًا بعد أن هبطنا، مُشـتتًا وعيناه تسـبحان في الفراغ حوله. ظللتُ منتظرًا أن يسألني كما يفعل دومًا؛ لكنه لم يفعل. تجاهلت أنا أيضًا ما حدث، أو حاولتُ تجاهله دون أن أحاول فتح الموضوع معه؛ لأنني لا أملك تفسيرًا، وأي كذبة سأقصُّها ستبدو ساذجةً جدًّا لن تقنعه بأيِّ شيء. أخذتُ أفكر في أيِّ شيءٍ أقوله له محاولًا البحث عن سبب يقنعه بما حدث، فلم أجد. لم يتكلم معي طوال اليوم كأنما يعفيني من الإحراج، فقط عيناه تتابعاني من بعيد.

ظلَّ ما حدث سرنا الصغير حتى اليوم التالي. عندما وصلنا أمام مدخل العمارة. ودخلنا ببطء لنتوقف أمام الأسانسير ذي الباب الحديدي المزخرف؛ شعرتُ بأصابعه الصغيرة تتوتر في كفي وإن كان يقفز بحماس غريب.

شـدَّني من كمِّي لأنظر إليـه، وهمس لي: «هنروح المشـوار بتاعنا تاني النهاردة؟» كانتْ عيناه تشعَّانِ إثارةً وفضولًا. لم أجد ما أعلِّق به، فصمت وأنا أتأمل النقوش على الباب أمامي.

ضغـط هو زر طلب الأسانسـير وظل يتقافز جانبـي. عندما جاء من الخارج جارنا الذي يسكن في الشقة المقابلة. كان يحمل الكثير من الأشياء. ألقى تحيَّة سريعة لي ولزياد وتوقف يلهث جانبنا. انطفأ زياد فجأة، نظرتُ له فرأيتُ الحماس كلَّه يذوي في عينيه. كانت نظرته لي مرتبكة؛ كأنما يخشى أن يكشف أحد ذلك السر. فكرتُ بأن أخبره أنَّه ربَّما كان الجميع على علم بما يحدث دون أن يتكلم أحد؛ لكنني تراجعتُ، فلن يفهم ما أقول.

جاء الأسانسير، فتحتُ الباب وسمحتُ لجارنا بالدخول قبلنا. ظلَّ زياد ممسكًا يدي بتوتر لا يريد الدخول. فهمتُ أنَّه يريد للرجل الصعود وحده، ثم نصعد نحن؛ لكني قمتُ بالدخول جانب الرجل ساحبًا زياد عنوة للداخل. كان يزوم بصوته الصغير قارصًا بشدَّة على أصابع يدي. نظرتُ للوحة وحددتُ الزر وضغطتُ عليه. لم يلاحظ الرجل أن الأرقام قد مُسحتْ، صعد الأسانسير بهدوء وتوقف مباشرة في الطابق السادس دون مغامرات وفُتح الباب. خرج الرجل قبلنا بسرعة، وقام بإسناد الباب بقدمه كي نخرج خلفه. شعرتُ بإحباط زياد يتصاعد، أراد سحب كفِّه الصغير من يدي؛ لكني أمسكتُ به جيدًا وأخرجتُه بصعوبة للخارج.

ما أن خرجنا حتى انغلق الباب وحده وصعد لأعلى. نظرتُ لعينيّ زياد المعلقتين على أعلى الباب المغلق وهو يتابع الأسانسير في صعوده للأعلى، وربتُّ على كتفيه الصغيرين دون كلام، فانتفض.

في الحقيقة كنتُ مرتاحًا بعض الشيء لما حدث الآن، كنتُ متوترًا لا زلتُ، ولا أجد أي تفسير. سار زياد أمامي لباب البيت محبطًا، يجرُّ خلفه قدميه جرًّا.

5

كان اليوم ممطرًا، عاصفًا. دخلنا بسرعة أنا وزياد لمدخل العمارة الجاف مبللين يلفنا البرد من كلِّ جانب. الجوُّ بارد، والسماء داكنة. توقفتُ لأمسح له شعره ووجهه المبلل وأبتسم. كانتْ عيناه تغيبان في الفراغ. يتطلع للأسانسير بنظرة خفيَّة من بعيد.

كان المدخل هادئًا؛ نصف مظلم. اقتربنا ببطء وقام هو بالضغط على زر طلب الأسانسير. ظلَّ صامتًا لا ينطق حتى نزل الأسانسير من أعلى. فتحتُ الباب متحاشيًا النظر له. لكنَّه شدَّ كمي دون أن يتقدم للداخل. نظرتُ إليه؛ كانت عيناه مملوءتين بمئات الكلمات. لم يقلْ سوى:

- بابا.. لو سمحت..

أفكر قليلًا، وأنا أغرق في نظرة عينيه المُترجية.

- أنت فاكر الزرار اللي ضغطت عليه؟

- آه.. يرد بحماس الكون كله.

ندخل معًا للداخل. يُغلق الباب خلفنا بهدوء ويمدُّ هو يده بثقةٍ ليضغط زرًّا لم أره من قبل. يتصاعد صوت تنفسه السريع. ومعه يزداد توتر وعرق كفه الصغير داخل كفي.

يرتجُّ الأسانسير وهو يصعد ببطء شديد كالمرة السابقة. تتقطع الإضاءة حولنا، والارتجاج يتواصل بشدَّة. كنتُ متوترًا، خائفًا، لا أعلم كيف وافقتُه على هذا. يشدُّني من كمي ثانية، فأنظر له. يترك شنطته الصغيرة، ويمدُّ لي ذراعيه. فأترك حقيبتي بسرعة على الأرض وأنا أرفعه لأحمله، أضمه إلى صدري محيطًا ظهره بذراعيّ.

يهتزُّ الأسانسير اهتزازة أخيرة وهو يتوقف ببطء وتنطفئ أنواره كلُّها. أحاول السيطرة على تنفسي وعلى هدير معدتي، وأنا أمدُّ يدي لأدفع الباب الحديدي الثقيل.

ينفتح الباب ببطء ليغمرنا ضوءٌ شديدٌ أعمى عيوننا لثوانٍ. دفن هو

رأسه في صدري، وأنا أحاول وضع يدي أمام عيني لأرى ما أمامنا. ظللتُ مبهوتًا مما أرى، وهو يرفع رأسه بحذر لينظر معي. انتفض قليلًا قبل أن يلفَّ كامل ذراعيه على كتفي ورقبتي، وهو يضحك بحماس وفرحة طاغية. يشدُّني من كتفي لأتحرك للخارج.

أنظر له نظرة أخيرة. أبتسم ابتسامة واسعة تملأ وجهي كله قبل أن أخطو بحرص على السحاب المنثور أمامنا.